سنة الابتلاء: حِكَمها وأثرها في تمكين الأمة من منظور القرآن الكريم

د. عفاف عبد الغفور حميد*
ahameed@sharjah.ac.ae

ABSTRACT

Allāh S.W.T. created all things according to certain decrees and nothing could happen out of its rulings. Allāh's divine decree has a significance in dealing with mankind; their attitude towards the law of Allāh and His messengers; and the impacts on this world and the hereafter. The main method to understand Allāh's decree is by referring to the Qur'ān and Prophet's Sunnah. Tribulation is one of His advantageous decrees in selecting the most pious man in order to find out who really serve Him. This article tries to reveals this kind of decree according to the Qur'ān, followed by an introduction defines tribulation and its related meanings. The first part discusses general and specific of tribulation's nature and forms; whilst the second part discusses the wisdom behind it and its impact on global stability, both general and specific.

Keywords: *God's decree, al-ibtilā', al-Qur'ān, Muslims.*

مقدمة: سنة الابتلاء في القرآن وعلاقتها بالسنن الأخرى

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين الهادي لمعرفة سنن الله في أرضه، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين.

خلق الله الكون وما فيه من مخلوقات وعلى رأسها الإنسان وكل يسير وفق سنن إلهية، فكل ما يحدث في الكون والحياة الإنسانية من حوادث ومجريات، كل ذلك لا يقع صدفة أو عبثاً ولا ارتجالاً، وإنما وفق قانون ثابت صارم لا يخرج عن أحكامه شئ.

* أستاذ مساعد في جامعة الشارقة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، قسم أصول الدين.

Jurnal Usuluddin 29.indb 303 9/27/2010 5:34:16 PM

ولهذا القانون (السنن) وجهان، أحدهما يخضع له جميع الكائنات ومنها الإنسانية في وجودها المادي وجميع الحوادث المادية، تدل على وجود الله الخالق وعظمته، لأن المادة لا تعقل فلا بد من مسيّر لها، ومن ذلك قوله تعالى: «وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ* وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ* لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ'' يس: ٣٨-٤٠، وفي خضوع الإنسان لهذا القانون: ''وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ* ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ* ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ'' المؤمنون: ١٢-١٤.

ومن سمات هذا القانون العام من هذا الوجه، الثبات والاستمرار بدليل اطراد أحكامه وسريانها على الحوادث والظواهر التي يحكمها هذا القانون، مثل ''وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ'' يس:٣٣، وبقدر معرفة الإنسان بهذا القانون يمكنه الاستفادة منه، ومع أنه لا يستطيع أن يغير فيه وإنما يستطيع أن يوسع معرفته بتفاصيله الكثيرة بما أعطاه الله من آلات المعرفة التي منحها للإنسان متمثلة بـ (السمع والإبصار والأفئدة) بالمشاهدة والتأمل والنظر واستخلاص النتائج في ضوء ذلك للتعرف على القواعد التي تحكم الموجودات والحوادث، كما قال تعالى: ''وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ'' النحل: ٧٨، قال الآلوسي : ''والمعنى: جعل لكم هذه الأشياء آلات تحصلون بها على العلم والمعرفة بأن تحسوا بمشاعركم جزئيات الأشياء وتدركوها بأفئدتكم - أي بعقولكم - وتنتبهوا لما بينها من المشاركات والمباينات بتكرير الإحساس فيحصل لكم علوم بديهية تتمكنون بالنظر فيها من تحصيل العلوم الكسبية''[1]، وهذا العلم مشاع للجميع ولا يختص المسلمون بشئ منه اللهم إلا في القصد من تعلمه وفي أوجه الانتفاع منه، لأن قصد المسلم وأوجه انتفاعه بالأشياء وبما يعلم محكوم بحكم الشريعة الإسلامية.

وأما الشق الثاني من هذا القانون فهو الذي يتعلق بخضوع البشر له تصرفاتهم وأفعالهم وسلوكهم في الحياة وما يكونون عليه من أحوال مختلفة، وفي مصادر الشريعة

[1] الآلوسي، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود البغدادي، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، دار إحياء التراث العربي،بيروت، ١٩٨٥م، ٢٠١/١٤.

Jurnal Usuluddin 29.indb 304 9/27/2010 5:34:17 PM

ما يدل على وجود سنة عامة تخضع لحكمها تصرفات البشر، ولما كان معنى السنة في اللغة: الطريقة المتبعة، فسنة الله في هذا الوجه: «هي الطريقة المتبعة في معاملة الله للبشر بناءً على سلوكهم وأفعالهم وموقفهم من شرع الله وأنبيائه وما يترتب على ذلك من نتائج في الدنيا والآخرة» وهو بمثابة القانون العام الذي يحكم البشر[٢].

والسبيل لمعرفة سنة الله من هذا الوجه هو الرجوع إلى كتاب الله وسنة نبيه الكريم، ففيهما القول الفصل والقول الصدق، وقد أخبر القرآن عن هذه السنن بطرق متنوعة تعبر عن سنة ثابتة كما في قوله تعالى: «وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِداً» الكهف: ٥٩، هذه السنن التي ذكرها القرآن جديرة بالدراسة والفهم من قبل المسلمين، ويعد القصص القرآني خير ما يمثل سنة الله مع الأقوام الغابرة والأنبياء مع أقوامهم، والتي تنطبق على من بعدهم.

ومن هذه السنن التي يخضع لها البشر «**سنة الابتلاء**» وهي جارية في المجتمعات قديما وحديثاً لأن الإنسان خلق أساسا للابتلاء في تحقيق العبودية، قال تعالى : «إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً» الإنسان: ٢، قال الزمخشري: «أي خلقناه مبتلين له، بمعنى: مريدين ابتلاؤه»[٣]، ومن المعلوم أن الهدف من خلق الإنسان العبادة، ويقع الابتلاء لتحقيق العبودية لله، وهي بحد ذاتها اختبار للإنسان وابتلاء بالمسؤولية وأمانة التكليف، ومن ثم الإيمان وطاعة الله عز وجل.

والابتلاء: الاختبار ويكون في الخير والشر، والاسم: البلوى، والبلاء، وهو الحادث الذي ينزل بالمرء ليختبره[٤]، وفي مفردات الراغب في غريب القرآن: «...وسمي التكليف بلاء من أوجه، **أحدهما**: أن التكاليف كلها مشاق على الأبدان فصارت من هذا الوجه بلاء، **والثاني**: أنها اختبارات ولهذا قال الله عز وجل: «وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ» محمد: ٣١، **والثالث**: أن اختبار الله تعالى للعبد تارة بالمسار ليشكر، وتارة بالمضار ليصبر، فصارت المحنة والمنحة جميعا بلاء»[٥].

---

[٢] عبد الكريم زيدان، **السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٢م، ص ١٣.

[٣] الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**، تحقيق: مصطفى حسين أحمد، ط٢، دار الريان، القاهرة ١٩٩٢م.، ٦٦٦/٤.

[٤] انظر: ابن منظور، محمد بن مكرم، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، ١٩٥٦م. ٩٠/١٨، ومجمع اللغة العربية، **المعجم الوسيط**، إشراف: إبراهيم أنيس وآخرون، استانبول/ تركيا: المكتبة الإسلامية، (د.ت)، ٧٠/١.

[٥] الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، ص ٦٠.

Jurnal Usuluddin 29.indb 305 9/27/2010 5:34:17 PM

وللابتلاء في القرآن الكريم – والذي تكرر ٣٧ مرة – مفردات وألفاظ تحمل معنى مقارب منها: الفتنة والمحنة، والتمحيص، والتمييز وغيرها، وهناك فروق بينها في الطبيعة والشدة، فالفتنة مثلاً أعم وأكبر من البلاء، وأشد منه، فالابتلاء جزء من الفتنة[٦].

وهذه السنة «الابتلاء» ليست قائمة بذاتها بل لها صلة بكل السنن الإلهية الخاصة بالحياة الإنسانية أو غيرها من السنن الكونية، فهناك علاقة واضحة بين السنن في الحياة الإنسانية عموما ومنها الابتلاء مع القدر، ومع السنن الكونية، فالقدر: هو علم الله سبحانه وتعالى بالأشياء ومقاديرها وقوانينها وسننها قبل وجودها، وكتابة ذلك في اللوح المحفوظ.

والسنن هي بعض ما قدره الله عز وجل، لأن القدر بالإضافة إلى ذلك يشمل وقوع الحوادث والأشياء وفق تلك السنن، فمن قدر الله في الكون مثلاً سنته ونظامه في تعاقب الليل والنهار، ومن قدره أيضاً حدوث كل منهما في الواقع وفق تلك السنة، ومن قدر الله عز وجل في الحياة الإنسانية سنته في نصر المؤمنين وهزيمة الكافرين... وعلى هذا تكون السنة جزءاً من القدر[٧].

وقد أشارت آيات قرآنية إلى ذلك، قال تعالى: «وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً» الفرقان: ٢، قال المراغي: «كل كائن في هذه الحياة فهو بتقديره وتكوينه على مقتضى الحكمة البالغة والنظام الشامل، وبحسب السنن التي وضعها الله في الخليقة»[٨]، كما تشير الآيات إلى وقوع الحوادث وفق ما قدر من نظام وسنن، «وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ» القمر:١٢، ومن هذه الحوادث ما قدره الله من أنواع الابتلاء.

ولها علاقة بسنة الأسباب والمسببات (قانون السببية)، فالسبب: كل شئ يتوصل به إلى غيره، قال تعالى: «وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً * فَأَتْبَعَ سَبَباً» الكهف: ٨٤-٨٥، وقد دل القرآن على أن كل شئ يحدث بسبب، وهو ربط المسببات بأسبابها

---

٦ انظر : السحيباني عبد الحميد بن عبد الرحمن، **الفتنة وموقف المسلم منها في ضوء القرآن**، دار القاسم، الرياض، ١٩٩٦م ص ٢٤.

٧ الخطيب، شريف الشيخ صالح، **السنن الإلهية في الحياة الإنسانية**، مكتبة الرشد الرياض، ٢٠٠٤م، ص٥٩-٦٠.

٨ المراغي أحمد مصطفى، **تفسير المراغي**، المكتبة التجارية مصر، (د.ت) ، ١٠١/٢٧.

Jurnal Usuluddin 29.indb 306 9/27/2010 5:34:17 PM

والنتائج بمقدماتها، ولا يتنافى الإيمان بها بالإيمان بالقضاء والقدر، فلا بد لهذه الأسباب من شروط وانتفاء موانع، كما أنه لا يتنافى مع تمام التوكل، وكما في الأحاديث الثابتة عن رسول الله ﷺ: " أعقلها وتوكل.."[٩]، وفي صحيح مسلم: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز»[١٠] ومن تلك السنن «سنة التغيير»: إن تغير أحوال المجتمعات والأمم من حال إلى حال ظاهرة مشاهدة... فمن سعادة رخاء إلى شقاء وشدة، ومن تقدم وازدهار إلى تأخر وانحطاط وبالعكس، ومن عز وقوة إلى ذل وضعف، ومن فقر إلى غنى ومن غنى إلى فقر، ومن مرض إلى صحة ومن صحة إلى مرض.. وهكذا، وهذه الظاهرة الاجتماعية في التغيير لا بد من سنة يسير عليها مرتبطة بسنة القدر والابتلاء، وقاعدة ذلك قوله تعالى: «إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ» الرعد:١١، وقوله : «كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللّهِ فَأَخَذَهُمُ اللّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» الأنفال:٥٢-٥٣، فقد تترتب مشيئة الله بالبشر على تصرف البشر وتنفذ فيهم سنته بناء على تعرضهم لهذه السنة بسلوكهم.

وكلام المفسرين تكاد تجمع على أن المراد أن الله لا يغير ما بقوم من نعم بإنزال انتقام إلا أن يكون منهم تغيير في النفوس...ونلحظ من أقوال المفسرين ربطهم بين الفكر والسلوك، فالفكر هو منبع السلوك الإنساني..[١١] ويوضح هذه الحقيقة قوله تعالى: «وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً» الأنفال:٢٥، وقوله «وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ» هود: ١١٧، ويرى المرحوم سيد قطب أن قدرة القوم على التغيير هبة من الله عز وجل فيقول: « وهو يحمل دليل التكريم لهذا المخلوق

---

[٩] جزء من حديث عن أنس بن مالك قال: قال رجل: يا رسول الله أعقلها وأتوكل أو أطلقها وأتوكل؟ قال: أعقلها وتوكل" انظر: الترمذي، سنن الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ حديث رقم (٢٥١٧) ج٤ ص ٦٦٨، وقال: هذا حديث غريب من حديث أنس لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وقد روي عن عمرو بن أمية الضمري عن النبي ﷺ نحو هذا.

[١٠] مسلم، صحيح مسلم، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، برقم (٢٦٦٤) ج٤، ص ٢٠٥٢، وابن ماجة في كتاب الزهد، باب التوكل واليقين برقم (٤١٦٨) ج٢، ص١٣٩٥، وفي باب القدر (٧٩)، ج١ ص٣١، وفي مسند الإمام أحمد (٨٧٧٧) ج٢، ص٣٦٦، و (٨٨١٥) ج٢، ص٣٧٠.

[١١] الخطيب، شريف الشيخ صالح، **السنن الإلهية في الحياة الإنسانية**، ٢/ ٩.

Jurnal Usuluddin 29.indb 307 9/27/2010 5:34:18 PM

الذي اقتضت مشيئة الله أن يكون هو بعمله أداة التنفيذ لمشيئة الله فيه»[١٢]، ولا يخفى أن هذه السنة يتبعها سنن وكلها تتعلق بالابتلاء، فهناك سنة الله في الظلم والظالمين وفي الترف والبطر وفي نصر الله للمؤمنين ...فالسنن كثيرة والكلام عن كل منها يحتاج إلى بحث، ويستطيع المتأمل لها أن يجد الصلة ما بينها جميعاً

المبحث الأول – طبيعة سنة الابتلاء وصورها

من خلال التدبر لآيات الابتلاء تتضح بعض المعالم لهذه السنة وطبيعتها، ينبغي معرفتها وفهمها من أجل التصرف حيالها وكيفية مواجهتها، ومن ذلك:

أولاً: أنها تقع بقدر الله، ولا تلغي إرادة الإنسان: فمن المعلوم أن من مظاهر تكريم الله للإنسان أن وهبه الإرادة، فهو مخير ضمن إطار المشيئة الإلهية، وهذه السنة – باعتبارها قانون الله في التعامل مع الخلق– لا تلغي إرادة الإنسان ولا تتعارض معها، بل القرآن يؤكد أن إرادته هي السبب في تغيير الأحداث والأحوال، كما ربطت الآيات بين ذلك وجعلت عمله سبباً في وقوعه في الفتنة كقوله تعالى: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ} النور: ٦٣، وقوله: {كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} الأعراف: ١٦٣، وغيرها من الآيات التي يجتمع معناها في قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ} الرعد: ١١.

كما تدل آيات أنها تقع بقدر الله ليكشف حقيقة عبده من إيمان وصبر، أو خلافه من جحود وجزع ليرتب على ذلك جزاءه الأخروي من ثواب وعقاب.. قال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ..}الحج: ١١، أي: خسر الدنيا بالبلاء الذي أصابه فلم يصبر عليه.. وخسر الآخرة بانقلابه على وجهه وانكفائه على عقيدته وانتكاسه عن الهدى[١٣].

وتؤكد آيات السنن الإلهية أن لهذه السنن خصائص كالثبات والاطراد والعموم[١٤] من ذلك قوله تعالى: {فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً}[١٥]

١٢ سيد قطب، **في ظلال القرآن**، ط ١٧، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٢م، ج.٣ ص ١٥٣٥.

١٣ سيد قطب، **في ظلال القرآن**، م٢، جـ١٧، ص٢٤١٢.

١٤ د. عبد الكريم زيدان، **السنن الإلهية في الإمم والجماعات والأفراد**، ص١٤.١٥.

١٥ فاطر ٣٥: ٤٣ وراجع آيات أخرى بهذا المعنى مثل: الأحزاب ٣٣: ٦٢، الإسراء ١٧: ٧٧، الأنعام ٦: ٣٤.

Jurnal Usuluddin 29.indb 308 9/27/2010 5:34:18 PM

فكذلك سنة الفتن والمحن والابتلاء فهي ثابتة لا تتغير، كما أنها مطردة لن تتخلف، وقد قصّ الله علينا قصص الأمم الغابرة للاتعاظ من الفتن، ولولا أنها مطردة لما أمكن الاتعاظ والاعتبار منها.. ولذلك يرى البعض أن هذا الاطراد يكون في حياة الأمم والجماعات وليس الأفراد[١٦]، أي أن الفتنة ذاتها لن تتكرر في حياة كل فرد بل تتنوع.. وتطرد في حياة الأمم لتعلقها بسنن أخرى.

كما أنها تتصف بالعموم والشمول، فلا تكون لفرد دون فرد – وإن تنوعت – ولا لأمة دون أخرى، ويسري حكمها على الجميع دون محاباة أو تمييز.. قال تعالى: {أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ} القمر: ٤٣، وقال: {وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ..} العنكبوت: ٣

ثانياً: سنة الابتلاء خاصة وعامة:

يمكن تقسيم الفتن والمحن بحسب من تقع عليهم إلى صنفين:

أ. **الخاصة:** وهي الابتلاءات التي تصيب الأفراد من الناس في النفس والمال والأهل.. وهو أمر لا يخرج عن طبيعة الحياة وسياقها لعدم دوام الحال وتغيره، كما إنها لا تطرد، فما يصيب شخصاً قد لا يصيب آخر، وهذا النوع لا يسلم منه صنف من البشر لا البر ولا الفاجر.. فلا بد أن يبتلى الفرد بفقد عزيز أو مرض أو خسران مال أو إيذاء، ومتاعب عيش ومفاجآت دهر أو غير ذلك.

ومن أمثلة الابتلاء الخاص فتنة النبي أيوب عليه السلام ومحنته في مرضه، وفقده لولده وماله. ونوح عليه السلام مع ولده الكافر .. وتكليف إبراهيم υ بذبح ابنه، ويعقوب عليه السلام مع بنيه وفقدان بصره.. واشد أنواع ذلك ما يكون في العرض كابتلاء مريم العذراء بولادة عيسى عليه السلام وعائشة رضي الله عنها بحادثة الإفك.

ومثل ذلك من ما أصاب الصحابة والتابعين رضي الله عنهم في حياتهم الخاصة ومن بعدهم من المؤمنين. يقول

رسول الله ﷺ: "ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا

[١٦] راجع: الشريف، عبد السلام بن نصر الله، **سنة الله في عقاب الأمم**، دار المعراج الدولية، الرياض، ١٩٩٤م، ص٢٠.

Jurnal Usuluddin 29.indb 309 9/27/2010 5:34:18 PM

ثم احتسبه إلا الجنة"[١٧].

وما يقع من ذلك في حياة الأفراد أنواع لا تخرج عند ابن عاصم الغرناطي من أن تكون في:

١ . المقتنيات. ٢ . الأنفس. ولكل منها صور ثلاث: أ. المتوقع في الاستقبال. ب. الواقع في الحال المؤمل زواله. ج. الواقع في الحال غير المؤمل زواله[١٨].

ب. العامة: وهي الابتلاءات التي تصيب الجماعات والأمم مرتبطة بسنن أخرى، وتكون عامة وشاملة للجميع دون تمييز. ويقع في مقدمة ذلك التكليف بالطاعة والإيمان لله من جميع البشر ..ومن ذلك الكوارث الطبيعية كالزلازل والفيضانات والعواصف التي تدمر مدناً وجماعات ويكون تأثيرها عاماً وشاملاً[١٩].

ومنها ما يكون سنة عقاب تنزل بالأمم الظالمة، كما مر في قصص الأنبياء مع أقوامهم، قال تعالى: {هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ} الأنعام: ٤٧، وقال: {وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا} يونس: ١٣، وهي سنة مطردة.

ومنها ما يكون تحقيقاً لسنة التدافع والتغيير والصراع بين الحق والباطل كالحروب التي تصيب الأمم والجماعات بأنواع البلاء، وقد قال تعالى محذراً من هذه الفتن: {وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً} الأنفال: ٢٥.

هذا وإن التقسيم إلى الخاص والعام لا يعني الانفصام التام بينها وبين أنواعها، بل ما يصيب الفرد يصيب الجماعة، وينتظم الصنفان تحت قوله تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ} البقرة: ١٥٥، وقوله فيها تعالى: (بشيء) وتنكير شيء . كما يدل عليه السياق . للتقليل والتحقير لأن هناك ما هو أكبر[٢٠].

---

[١٧] البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب العمل الذي يبتغى به وجه الله، ١٧٢/٦، والإمام أحمد، مسند أحمد، ٤١٧/٢، والنسائي، سنن النسائي، كتاب الجنائز، باب ثواب من صبر واحتسب، ٢٣/٤، ح ١٨٦٩.

[١٨] راجع: ابن عاصم الغرناطي، **جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى**، دار البشير، عمان،١٩٨٩م. ١٠٩/١ وقد بنى الكتاب بأجزائه الثلاثة على هذه الأصناف التي لا تخرج عن الصنف الفردي الابتلاء.

[١٩] راجع نماذج من الكوارث الطبيعية في التاريخ: الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، **سير أعلام النبلاء**، ط٢ مؤسسة الرسالة بيروت جـ١٣، ص٤٧٢، ٤٨٠، ١٦٧/٢٢، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٢٨، ٢٣٠-٢٣١، ١٨٠/٢٣.

[٢٠] راجع: د. يوسف القرضاوي، **الصبر في القرآن الكريم**، ط٤، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥.

Jurnal Usuluddin 29.indb 310 9/27/2010 5:34:19 PM

ثالثاً: الابتلاء بالشر والخير

دلت النصوص القرآنية أن سنة الابتلاء تكون في الخير والشر، كالفقر والغنى، والصحة والمرض، والخوف والأمن .. قال تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ} الأنبياء: ٣٥، قال الزمخشري: «أي نختبركم بما يجب فيه الصبر من البلايا، وبما يجب فيه الشكر من النعم، وإلينا مرجعكم فنجازيكم على حسب ما يوجد منكم من الصبر أو الشكر .. وفتنة: مصدر مؤكد لنبلوكم من غير لفظه»[٢١]. وقال ابن كثير: «أي نختبركم بالمصائب تارة وبالنعم أخرى، فننظر من يشكر ومن يكفر، ومن يصبر ومن يقنط، قال ابن عباس: «.. أي بالشدة والرخاء والصحة والسقم، والغنى والفقر، والحلال والحرام، والطاعة والمعصية، والهدى والضلال»[٢٢].

ومما يدل على ذلك أيضاً قوله تعالى: {فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ. وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ..} الفجر: ١٦، فجعل الإكرام والنعمة ابتلاء كالتضييق في الرزق سواء، فالمنحة والمحنة كلاهما بلاء .

والمؤمن يحتاج إلى الصبر على الاثنين، بل القدرة على البلاء في النعمة أشد، «فالمحنة مقتضية للصبر والمنحة مقتضية للشكر والقيام بحقوق الصبر أيسر من القيام بحقوق الشكر، فالمنحة أعظم البلاءين، وبهذا النظر قال عمر بن الخطاب τ: بلينا بالضراء فصبرنا وبلينا بالسراء فلم نصبر"[٢٣].

وقال بعض العارفين: البلاء يصبر عليه المؤمن والعوافي (جمع عافية) لا يصبر عليها إلا صديق»[٢٤]. وقال الإمام الغزالي: «وإنما كان الصبر على السراء أشد لأنه مقرون بالقدرة ومن العصمة ألا تقدر... والجائع عند غيبة الطعام أقدر على الصبر منه إذا حضرته الأطعمة اللذيذة وقدر عليها، فلهذا عظمت فتنة السراء»[٢٥]. وبهذا يقول المرحوم سيد قطب:

---

٢١ الزمخشري، **الكشاف**، جـ٣، ص١١٦.

٢٢ الصابوني، محمد علي، **مختصر تفسير ابن كثير**، ط٥، بيروت: دار القلم، جـ٢، ص٥٠٧-٥٠٨.

٢٣ الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، ص٦١.

٢٤ راجع: د. يوسف القرضاوي، **الصبر في القرآن الكريم**، ص٤٢.

٢٥ الإمام أبو حامد الغزالي، **إحياء علوم الدين**، دار الحديث، القاهرة، ١٩٩٢، جـ١، ص٧.

Jurnal Usuluddin 29.indb 311 9/27/2010 5:34:19 PM

«إن الابتلاء بالشدة قد يثير الكبرياء ويستحث المقاومة ويجند الأعصاب، فتكون القوى كلها معبأة لاستقبال الشدة والصمود لها، أما الرخاء فيرخي الأعصاب وينيمها ويفقدها القدرة على اليقظة والمقاومة. ولذلك يجتاز الكثيرون مرحلة الشدة بنجاح حتى إذا جاءهم الرخاء سقطوا في الابتلاء، وذلك شأن البشر إلا من عصم الله، فكانوا ممن قال فيهم رسول الله ρ: "عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له"[٢٦] وهم قليل. فاليقظة للنفس في الابتلاء بالخير أولى من اليقظة لها في الابتلاء بالشر، والصلة بالله في الحالين هي وحدها الضمان»[٢٧].

أ. صور من الابتلاء بالشر:

الابتلاء بالشر معروف أمره، ومنه ما هو من طبيعة حياة الإنسان الذي خلق للابتلاء، وهذا لا يتحقق إلا بمعايشة ما يكدر من الأمور وكيفية التصرف تجاهها، وقد تضمن قوله تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ*الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} البقرة: ١٥٥، كثيراً منها سواء على المستوى الخاص أو العام، فكلها ابتلاءات يستحق الصابر عليها بقوله {إنا لله وإنا إليه راجعون} الجنة، وهناك ما هو أشد كالفتنة في الدين والعرض، كفتنة يوسفυ مع امرأة العزيز، ومنها فتنة الجهاد والحرب.

ومنها ما يكون في مجال العلاقات الاجتماعية والأسرية، كمحنة الفرد مع زوجه أو ولده وجاره وصديقه، والتصرف تجاهها ينبغي أن ينطلق من قوله تعالى: {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} المؤمنون: ٩٦.

ومن ذلك ابتلاء الناس بالتفاوت بينهم فيكون ابتلاءً بالشر لمن هو أدنى، قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا ءَاتَاكُمْ} الأنعام: ١٦٥.

---

٢٦ الإمام مسلم، صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، جـ٣، ص٢٢٩٥، والدارمي، سنن الدارمي، كتاب الرقاق، باب المؤمن يؤجر في كل شيء، جـ٢، ص٦٢٤.

٢٧ سيد قطب، **في ظلال القرآن**، جـ٤، ص٢٣٧٨.

Jurnal Usuluddin 29.indb 312 9/27/2010 5:34:19 PM

ومن هذه الفتن ما هو خاص بالمؤمنين كوقوعهم في الشدائد. قال تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ...} البقرة: ٢١٤، قيل إنها نزلت في معركة الخندق حين أصاب المسلمين الجهد والشدة .. وقيل تسلية للمهاجرين حين تركوا ديارهم[٢٨] .

ويمتحن المؤمنون بالجهاد: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ} آل عمران: ١٤٢ .. ويمتحنون كذلك بأنواع الأذى {لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا..} آل عمران: ١٨٦،.. والأذى الكثير: صنوف البلاء، وقد تفنن أهل الكتاب والمشركون في ذلك الأذى قديماً وحديثاً، في القول والفعل[٢٩].

وقد يبتلى الكفار بالبأساء والضراء لعله يردعهم عن الكفر والعناد، فإن لم يكفّوا ابتلاهم بالسراء عسى أن يحملهم ذلك على التوبة.. قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ. ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ}[٣٠]. وقال: {حتى عفوا} أي أصبناهم بالسراء... فالله ابتلاهم بالسراء والضراء ولم يتعظوا {فأخذناهم بغتة} بالعقوبة[٣١].

ب. صور الابتلاء بالخير

الابتلاء بالشر معروف، ولكن الابتلاء بالخير يحتاج إلى فهم دقيق لا يناله إلا ذوي الألباب، قال تعالى: {فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ} الزمر: ٤٩، يقول تبارك وتعالى مخبراً عن الإنسان أنه في حال الضراء يتضرع إلى الله.. ويدعوه، وإذا خوله

---

٢٨ راجع: القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، **الجامع لأحكام القرآن**، مراجعة: صدقي محمد جميل، خرّج أحاديثه وعلق عليه: الشيخ عرفات العشا، دار الفكر، بيروت،١٩٩٥م، جـ٣، ص٣٤.٣٣.

٢٩ وقد فصل الدكتور محمد عبد القادر أبو فارس هذا الأذى، وذكر له صوراً منها: الحملات الإعلامية، كالاستهزاء والسخرية والتكذيب .. والتهديد بالأذى والإغراء بالجاه، والأذى الجسماني مثل السجن والتعذيب والتشريد، ومصادرة الأموال، والقتل ... الخ، راجع كتابه: **الابتلاء والمحن في الدعوات**، دار التوزيع والنشر الإسلامية القاهرة، ١٩٩٠م. ص٤٤.١٣٣.

٣٠ الأعراف ٧: ٩٤، ٩٥ ومثلها آية ٤٢، ٤٤ من سورة الأنعام.

٣١ راجع: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ٢٧/٧، وسيد قطب، **الظلال**، ٢٤.١٧/٨.

Jurnal Usuluddin 29.indb 313 9/27/2010 5:34:19 PM

نعمة بغى وطغى، وقال: {إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ} أي: لما يعلم الله استحقاقي له {بل هي فتنة} أي: ليس الأمر كما زعم بل إنما أنعمنا عليه لنختبره فيما أنعمنا عليه أيطيع أم يعصي[٣٢]. وقد قالها الذين سبقوهم.. قالها قارون وكل مخدوع غافلين أنها فتنة للاختبار.

ولعل فتنة الخير تعود كلها إلى «زينة الدنيا» التي تجمع كل خير، قال تعالى: {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً} الكهف: ٧. وذهب الإمام القرطبي إلى أن الزينة تشمل كل ما على وجه الأرض... من جهة خلقه وصنعه وإحكامه»[٣٣]. وما ذاك إلا الابتلاء والاختبار في الزهد بهذه الزينة وعدم الاغترار بها واتخاذها غرضاً للشكر وليس للشهوات والأغراض الفاسدة.. لأنها زائلة بدليل التعقيب على الآية {وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا} الكهف: ٨.

وزينة الدنيا تعم جميع البشر، فالدنيا يهبها الله للمؤمن والكافر ولكن الآخرة للمؤمن فقط، ومن ذلك فتنة العطاء قال تعالى: {كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً} الإسراء: ٢٠، وأكثر المفسرين ومنهم القرطبي والرازي على أن المراد من قوله {هؤلاء وهؤلاء} المؤمنون والكافرون[٣٤]. والله ابتلى الناس بهذا العطاء لإظهار موقفهم من زينة الأرض، فالمال والملك له أثر في القلوب، فمن الناس من يضعف أمامه فيصيبه الجشع والطمع فيصبح عبداً لزينة الأرض فيتبع أحط السبل للاستزادة منها.. فكم من زلت قدمه في الترف وقسا قلبه فلا يعرف المعروف.

ولهذا حذر الله من فتنة الأموال والأولاد والأزواج وشهوات الدنيا جميعاً بآيات منها: {إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ} التغابن:١٥، و{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} المنافقون: ٩، وقوله {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَئَابِ} آل عمران: ١٤، ودل القرآن على أن كل ذلك من زينة الدنيا الفانية وأن هناك ما هو خير منها فقال:{الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ

---

٣٢ راجع: الصابوني، **مختصر تفسير ابن كثير**، ٢٢٤/٣، سيد قطب، **الظلال**، ٣٠٥٦/٢٤.

٣٣ القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، جـ١٠، ص٣١٧-٣١٨.

٣٤ راجع: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ٢١٣/١٠، والرازي، **التفسير الكبير**، ١٨١/٢٠.

Jurnal Usuluddin 29.indb 314 9/27/2010 5:34:20 PM

الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً} الكهف: ٤٦، وعدها من الابتلاء بالخير كما قال: {أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ* نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ} المؤمنون: ٥٥-٦٥.

ومن الخير الجاه والمنصب، والتفاوت لمن هو أعلى بالخير {وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا ءَاتَاكُمْ} الأنعام: ١٦٥، أي ليختبركم في الذي أنعم به عليكم وامتحنكم به.. ليختبر الغني في غناه ويسأله عن شكره.. والفقير في فقره ويسأله عن صبره»[٣٥].

ومن فتنة الخير القوة في الجسم فلا يغتر بها، وقد عاب الله على قوم عاد – وكانوا عمالقة زادهم الله بسطة في الجسم – حين طغوا بقوتهم واستغلوها في الشر فقال عنهم {وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ} الشعراء: ١٣٠. وأشد من ذلك فتنة جمال الخلقة وخصوصاً للنساء.

ومن الخير الصحة والفراغ للحديث: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ»[٣٦] وهو أول ما يُسأل عنه العبد يوم القيامة.. عن عمره فيم أبلاه وعن شبابه فيم أفناه..

والابتلاء بالخير أشد وطأة من ابتلاء الشر، «إن كثيرين ممن يصمدون للابتلاء بالشر ولكن القلة هي التي تصمد للابتلاء بالخير.. كثيرون يصمدون ويصبرون على المرض والفقر والحرمان، ولكن القليلين هم الذين يصبرون على الصحة والثراء.. كثيرون يصبرون على التعذيب والإيذاء.. ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الإغراء بالرغائب والمناصب والمتاع والثراء[٣٧].

المبحث الثاني – الحكم والفوائد من سنة الابتلاء وآثارها في تمكين الأمة

لسنة الابتلاء فوائد وحكم ظاهرة وخفية تتحقق على المستوى الفردي أو الجماعي، وأتناول الموضوع في قسمين:

---

[٣٥] الصابوني، **مختصر تفسير ابن كثير**، ١/٦٤١-٦٤٢.

[٣٦] البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب الصحة والفراغ، جـ٧، ص١٧٠، والترمذي، جامع الترمذي، كتاب الزهد، باب الصحة والفراغ نعمتان ..، ٤/٥٥٠، والإمام أحمد، المسند، ١/٢٥٨، والهيثمي، مجمع الزوائد، ١/٢٩٠.

[٣٧] راجع: سيد قطب، **في ظلال القرآن**، جـ٤، ص٢٣٧٧-٢٣٧٨.

Jurnal Usuluddin 29.indb 315 9/27/2010 5:34:20 PM

القسم الأول: الحكم والفوائد الفردية

لعل من أهم الحكم والفوائد الفردية ما نجده واضحاً في حياة الأفراد، وقد يظهر في صفوف الجماعة كذلك وهي:

أولاً: إدراك عظمة الله وقدرته، والإيقاظ من الغفلة

ويكون ذلك بمعرفة الشخص الذي ألمت به محنة وفتنة قدر الله وعظمته وأسماءه الحسنى، في أنه الجبار القهار، والمعز المذل، والرافع الخافض، يقول العز بن عبد السلام في فوائد البلوى: "معرفة عزّ الربوبية وقهرها، وذلّ العبودية وكسرها"[٣٨]،فيوقن الإنسان ألا مفر من أمر الله وقضائه، وحكمه النافذ وابتلائه، فالكل ملكه وعبيده، يتصرف كيف يشاء؟!! إليه يرجع الأمر كله ثم إليه المصير، فعند ذلك يسترجع الإنسان في الضراء فيقول: «إنا لله وإنا إليه راجعون»، ويشكر على فتنة السراء بما يرضي الله.

كما يتحقق ذلك في مواطن الضعف والانكسار، ويحتاج إلى نصر الله، فيذل ويخضع وينقاد لله بتنفيذ أوامره والكف عن معاصيه قال تعالى: {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ} آل عمران: ١٣٣، وقال: {وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا} التوبة: ٢٥، فهو سبحانه إذا أراد أنْ يعزّ عبده ويجبره وينصره، كسره أولا، ويكون جبره له، ونصره على مقدار ذله وانكساره».[٣٩]

ومن المواقف التي يظهر فيها مثل ذلك، وتجعل الإنسان يقر لها ما قاله تعالى: {وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاه}الإسراء: ٦٧-٦٩، فالناس في هذه الحالة من الشدة أنهم في أعلى حالة من الركون إلى الله تعالى واللجوء إليه، على حالة تناقض غفلتهم عن ذلك في السلامة.

إن الفتن والمحن التي تصيب العبد قد تصاحبها هزة وجدانية تجعله يتيقظ ويستدرك أخطاءه وخصوصا لمن شغلته الدنيا عن الآخرة، فيفيق بالمحن وبذلك

---

[٣٨] العز بن عبد السلام، **الفتن والبلايا والمحن والرزايا، أو فوائد البلوى**، تحقيق: أياد خالد الطباع، ط٢، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٩٩٢، ص٩، وراجع ابن ناصر الدين الدمشقي، محمد بن عبد الله، **برد الأكباد عند فقد الأولاد**، دار النصر للطباعة الإسلامية، القاهرة، ١٩٨٨م، ص.٦٦..

[٣٩] ابن قيم الجوزية، **زاد المعاد في هدي خير العباد**، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ط٣، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٨م، ٣/٢٢١.

Jurnal Usuluddin 29.indb 316 9/27/2010 5:34:20 PM

يقول ابن ناصر الدمشقي: ''ومن فوائد الابتلاء مقت الدنيا لأنكادها وبعث النفس على العمل ليوم معادها، فإنه إذا تفكر في ذهاب أحبابه علم أنهم شربوا بكأس لا بد له من شرابه''، ويقول: ''تيقظ المبتلي من غفلته، وطيب نفسه ببره وإخراج صدقته''.[٤٠]

فعند المحن يستيقظ الإنسان ويدرك أن الدنيا في زوال فيستعد لذلك اليوم ويكثر من العمل الصالح...

ويجعلها ابن قيم الجوزية أول منازل العبودية فاليقظة[٤١]،وهو يريد بذلك أن أول آثار اليقظة استنارة القلب والانتباه وملاحظة نعم الله الظاهرة والباطنة، فيوجب محبة المنعم وحمده والخضوع له وصار لسان حاله ''أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت''[٤٢]..هذا الشعور يسعف العبد لتدارك أخطائه والسعي في تمحيصها وتدارك ما فاته من تقصير..

وقد ذم الله من غفل ونسي ما قدمت يداه فقال: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِأَيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ} الكهف: ٥٧.

وتتبع اليقظة خطوات أولها إعمال الفكر إلى الوجهة المطلوبة، فإذا استحكمت يقظته أوجب له الفكرة، وإذا صحت فكرته أوجبت له البصيرة من إدراك الوعد والوعيد، والبصيرة تنبت في القلب الفراسة الصادقة التي تفرق بين الحق والباطل، فعن النبي ﷺ قال: ''اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله عز وجل'' ثم قرأ {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَأَيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ}[٤٣] ثم بعد ذلك يأخذ في القصد والعزم.[٤٤]

إن أكثر ما تتحقق به اليقظة للغافل هي مواجهته للشدائد أو الاعتبار بالآخرين ومحنهم ومثال ذلك قوله تعالى: {وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَئَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا} فصلت: ٥١.

---

٤٠ ابن ناصر الدمشقي، **برد الأكباد**، ص٦٨.

٤١ العلي، عبد المنعم صالح، **تهذيب مدارج السالكين**، ص١٠١.

٤٢ البخاري، **الصحيح**، كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا أصبح، ج٧، ص١٥٠، الترمذي، **الجامع الصحيح**، كتاب الدعوات، باب ما جاء في الدعاء، ج٥، ص٤٦٧، النسائي، **سننه**، كتاب الاستعاذة، باب الاستعاذة من شر ما صنع، ج٨، ص٢٧٩.

٤٣ الحجر ١٥: ٧٥، والحديث أخرجه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب من سورة الحجر، ج٥، ص ٢٩٨، ح (٣١٢٧). وراجع البغوي، **شرح السنة**، ج ١٤، ص ٣١

٤٤ راجع: العلي، عبد المنعم صالح، **تهذيب مدارج السالكين**، ص١٠١-١١١.

Jurnal Usuluddin 29.indb 317 9/27/2010 5:34:21 PM

ويحصل أمران من ثمرات اليقظة من الغفلة هما:

١- الحذر من الشيطان وكيده: {وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ} الزخرف:٣٦.

٢- حصول التوبة: {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ} الشورى: ٣٠. يقول ابن قيم الجوزية: ''فالتوبة جامعة لمقام المحاسبة ومقام الخوف، لا يتصور وجودها بدونهما''.[٤٥]

ثانياً: التمحيص والتمييز

في الابتلاء يظهر الناس على حقيقتهم، ففي التجربة تتبين حقيقة الفرد.. فليس كل من يدعي الصبر هو صابر، أو يدعي الزهد هو زاهد، فالمصائب لا تطيقها كل النفوس فهناك من النفوس الضعيفة ما تجزع وتتبرم إذا أصابها شيء من ذلك.. وهناك من النفوس المؤمنة القوية في إيمانها من يتحمل كل هذه الآلام لأنها من الله تبارك وتعالى....[٤٦]، ويظهر التمييز في أمور مهمة منها:

١- تمييز الصادقين من الكاذبين، وذلك لأن الصدق أساس الإيمان، وقبول الأعمال، كما قال تعالى: {قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ} المائدة: ١١٩. وصفة الصدق تفرّق بين المؤمنين والمنافقين، لقوله تعالى: {ألم أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} العنكبوت: ١-٣. ويتميّز الصادقون من الكاذبين في الحرب والقتال، ويتوعد الله الجبناء المنهزمين بقوله: {وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} الأنفال: ١٦.

ويتميز الصادقون من الكاذبين فيما يصيب الأمة في عقائدها، ويوم تقلب الحقائق، هنا يظهر الصادقون الذي يراقبون الله في كل حال ويقولون كلمة الحق ولو اجتمعت الدنيا ضدهم، وعلى النقيض يظهر الكذابون الذين شغلتهم الدنيا عن الدين، وتزداد الفتنة بهم، وتشتد بهم محنة الصادقين.

[٤٥] العلي، **تهذيب مدارج السالكين**، ص١١٥.

[٤٦] أبو فارس، عبد القادر، **الابتلاء والمحن في الدعوات**، ص٣٨-٣٩.

Jurnal Usuluddin 29.indb 318 9/27/2010 5:34:21 PM

ويتميز الصادقون من الكاذبين في الابتلاء بالغنى والسعة في الرزق {وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ ءَاتَانَا مِن فَضْلِه لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ، فَلَمَّا ءَاتَاهُم مِّن فَضْلِه بَخِلُوا بِه وَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ، فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ} التوبة: ٧٥-٧٧.

٢- تمييز الصابرين من القانطين: قال تعالى: {وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا} الفرقان: ٢٠، قال البغوي في تفسير الآية: "وجعلنا بعضكم لبعض فتنة" أي: بلية، فالغني فتنة للفقير، يقول الفقير: ما لي لم أكن مثله، والصحيح فتنة للمريض، والشريف فتنة للوضيع.."

إن فتنة المؤمنين بالكافرين وعتوهم وأذاهم تميز الصابر الذي لا يفت في عضده سخرية جاهل أو بطش كافر أو كيد منافق... يتميز هؤلاء من صنف آخر إيمانه ضعيف وعقيدته مهزوزة يفقد زمام الصبر عند تسلط الكفار، ويقنط ويبأس، وقد يصل إلى الردة... وقد ذم الله تلك الطائفة فقال: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ} العنكبوت: ١٠.

وكان الرسول ﷺ يحث أصحابه على الصبر ويحذرهم القنوط، وفي حديث خباب بن الأرت t قال: أتيت النبي ﷺ وهو متوسد بردة في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت: يا رسول الله ألا تدعو لنا؟ فقعد وهو محمر الوجه فقال: "لقد كان من كان قبلكم ليمشط بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دين، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنتين ما يصرفه ذلك عن دينه..."[٤٧] وما هذا التحذير من رسول الله ﷺ إلا لأن القنوط واليأس يؤدي للاستسلام للعدو، والحذر من ذلك هو ما تحتاجه الأمة وخصوصا في هذا العصر الذي اجتمعت فيه كل القوى ضد المسلمين وتكالبوا عليها فاستسلم الكثير بعدما غفلوا عن ضرورة الصبر في المواجهة.

٣- تميز الشاكرين من الجاحدين، والشكر اعتراف بنعمة الله وكرمه وإحسانه، فالشاكر لسانه رطب بحمد الله..[٤٨] وشكر الله من قبل الإنسان في السراء والنعمة هو كذلك فضل من الله يحتاج إلى شكر آخر... ومن الشكر استعمال نعمة الله فيما

[٤٧] البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب المناقب، باب علامات النبوة، ٦١٩/٦، ح(٣٦١٢)، والإمام أحمد، **المسند**، ١٠٩/٥.

[٤٨] راجع: السحيباني عبد الحميد، ص٣٩٣.

Jurnal Usuluddin 29.indb 319 9/27/2010 5:34:21 PM

يحب، والكفر والجحود نقيض ذلك باستعمال نعمة الله فيما يكرهه سبحانه.

ثالثاً: التربية النفسية والأخلاقية

الابتلاء والمحن مدرسة تصوغ صاحبها صياغة جديدة وتغيره إلى الأفضل – إن أراد الله به خيراً– وفي مقدمة ذلك تقويم الأخلاق والسلوك ويندرج تحتها جملة فوائد:

١–الابتلاء يمنع صاحبه عن مساوئ الأخلاق: «إن المصائب والشدائد تمنع من الشر والبطر والفخر والخيلاء والتكبر والجبروت»[٤٩]، وذلك لأن الله سبحانه وتعالى أعلم بما يصلح العبد، فهو يعلم إن من الناس من تبطره النعمة ولا يصلحه إلا الفقر، ويعلم من يتجبر بالصحة ويصلحه المرض، ويطغى بالملك والسلطان ويتواضع بدونه..

وقد ضرب الله لنا أمثلة من هؤلاء فيمن أطغاه الملك والصحة والمال، فلو كان نمرود فقيراً سقيماً فاقد السمع والبصر لما حاج إبراهيم في ربه، لكن حمله بطر الملك على ذلك، قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ}،[٥٠] وقال {وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ} التوبة: ٧٤، وقال: {وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ} الشورى: ٢٧.

والطغيان بالجاه والملك معروف في كل زمان ومكان، وكذلك التجبر بكثرة المال والأولاد، والغرور بالصحة والعافية. أما الغنى والترف فقد يؤدي إلى البطر والأشر المهلك للأمم والجماعات ولهذا كان الأنبياء والصالحون أشد بلاءً ليكونوا دائماً في حالة توجه إلى الله تعالى وإقبال عليه.. ويبتلى العبد على قدر دينه فإن كان صلباً شدد في بلائه، وقد عبر الرسول ﷺ عن تلك الفتن والمحن التي تصيب المؤمن فقال: ''مثل المؤمن كمثل الزرع، لا تزال الريح تميله، ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء''،[٥١] وفي حديث آخر: ''مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تفيؤها الريح تصرعها مرة وتعدلها مرة أخرى حتى تهيج''[٥٢].

٤٩ العز بن عبد السلام، **فوائد البلوى**، ص١٧، وراجع ابن ناصر الدمشقي، **برد الأكباد**، ص٦٩.

٥٠ البقرة ٢: ٢٥٨، ومثل ذلك قول فرعون: {أنا ربكم الأعلى}. النازعات ٧٩: ٢٤.

٥١ البخاري، **الصحيح**، كتاب في المرضى، باب ما جاء في كفارة المرض، ج٧، ص٢، ح(٥٦٤٤)، والإمام مسلم، **الصحيح**، كتاب صفات المنافقين، باب مثل المؤمن كالزرع، ج٣، ص٢١٦٣، ح(٢٨٠٩).

٥٢ البخاري، **الصحيح**، كتاب في المرضى، باب ما جاء في كفارة المرض، ١/٧، ح(٥٦٤٣)، والإمام مسلم، **الصحيح**، كتاب صفات المنافقين، باب مثل المؤمن كالزرع، ٢١٦٣/٣، ح(٢٨١٠)، ينظر شرح النووي، ٦٧٥/٥، «الخامة: الطاقة والقصبة اللينة من الزرع، تفيؤها: تميلها، تصرعها: تخفضها، تعدلها: ترفعها، تهيج: تيبس».

Jurnal Usuluddin 29.indb 320 9/27/2010 5:34:21 PM

٢- الرضا بالابتلاء يوجب رضوان الله تعالى: إن المصائب تنزل بكل الناس فالساخط يخسر الدنيا والآخرة، أما من رضيها فله الرضا من الله سبحانه وتعالى حيث قال: {وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ} التوبة:٧٢، أي من جنة عدن ومساكنها الطيبة. والرضا عادةً مترتب عن الصبر متوقف عليه ولا يثبت بدونه.

وليس من شروط الرضا ألا يحس الإنسان في وقت الشدائد بالألم والمكاره، بل ألا يعترض على الحكم

ولا يتسخطه ففي الحديث ''..إن الله إذا أحب قوما ابتلاهم من رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط''[٥٣]... وفي الدعاء ''أسألك الرضاء بعد القضاء''،[٥٤] لأن الرضا قبل القضاء عزم على الرضا.

وثمرات الرضا كثيرة، كالطمأنينة وبرود القلب وسكونه، ولذلك مدح الله الراضي فقال: {يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي} الفجر: ٢٧-٢٨.

٣- في الابتلاء إدراك ومعرفة لقدر العافية ورحمة أهل البلاء للغافل عنها: إن الشيء لا يعرف إلا بضده، فيحصل بذلك الشكر الموجب لمزيد من النعم.. ومعايشة صاحب النعمة لفاقدها تجعله يحس بقيمتها وقدرها فيشكر المنعم بذلك.. وبذلك تكون من حكم الفتن والمحن حصول رحمة أهل البلاء الموجبة لرحمة الله عز وجل وجزيل العطاء ''ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء''[٥٥]، ولنا في قصة صاحب الجنتين مثلاً حيث تشير القصة إلى أنه طغى بكثرة ماله وولده فأنكر الساعة، وعند فقده لنعمة الجنتين قدّر حق المنعم {وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا} الكهف: ٤٢، والمتدبر للقصة يدرك لطف الله به ليرجع إلى الحق وشكر الله تعالى ورؤية المنة منه فيما منع منه.

---

٥٣ الترمذي، **الجامع الصحيح**، كتاب الزهد، باب ماجاء في الصبر على البلاء، ج٤، ص ٦٠١، ح (٢٨٩٦)، وقال حديث حسن غريب.

٥٤ النسائي، **السنن**، كتاب السهو، باب الدعاء بعد الذكر، ج٣، ص٥٥، ح(١٣٠٣)، أحمد، **المسند**، ج٥، ص١٩١.

٥٥ الترمذي، **الجامع الصحيح**، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة المسلمين، ج٤، ص٣٢٤.

Jurnal Usuluddin 29.indb 321 9/27/2010 5:34:22 PM

إن المحن تربية تعلم صاحبها الحلم والعفو والصبر[٥٦]، وهي صفات يحبها الله تعالى حيث وصف إبراهيم وإسماعيل فقال: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ} التوبة: ١١٤،وكذلك العفو عن المسيء امتدحه الله بقوله: {وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ} آل عمران: ١٣٤، و{فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ} الشورى: ٤٥.

رابعاً: تكفير السيئات والثواب في الدنيا والآخرة

قد دلت نصوص كثيرة على أن ما يتعرض له الإنسان في حياته من ابتلاءات تكون بمثابة كفارات للذنوب، إذا هو صبر عليها واحتسب، ومن ثم ييسر له الله الخير...ومن ذلك قوله تعالى: {وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ} آل عمران: ١٤١.

وكل ما يعانيه المسلم من أذى في سبيل الله والذي يؤدي به أحيانا إلى الهجرة قد جعل الله لهم فيه فائدة وهي تكفير السيئات ودخول الجنة، قال تعالى: {هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ} آل عمران: ١٩٥، كما أن الله تعالى أعلن توبته على كل المهاجرين والأنصار الذين وقفوا مع المسلمين في الشدة، لأنها كانت اختباراً لهم على صدق الإيمان فقال: {لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ} التوبة: ١١٧، فقد تجاوز الله تعالى برحمته عما بدا من تردد بعض المؤمنين وتخلفهم أو تثاقلهم في الخروج ثم لحقوا بالركب، فتاب الله عليهم بعد أن عرفوا أخطاءهم وطلبوا المغفرة، ومنهم الثلاثة الذين خلفوا عن معركة تبوك، وفي قصة حاطب بن أبي بلتعة الذي أخبر قريشاً بقدوم المسلمين لفتح مكة ما يدل على ذلك، وقد عفا عنه r قائلا: "لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: "اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة".[٥٧] وهناك أحاديث كثيرة كلها تفيد تكفير السيئات للعبد المبتلى بالفتن والمحن صغيرها وكبيرها، كما قال الرسول r: "ولا يصيب المؤمن من وصب ولا نصب حتى الهم يهمه، والشوكة يشاكها إلا

[٥٦] راجع: العز بن عبد السلام، ص١٠-١١.

[٥٧] البخاري، **الصحيح**، كتاب الاستئذان، باب من نظر في كتاب من يحذر على المسلمين، ج٧، ص١٣٤، ومسلم، **الصحيح**، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر، ١٩٤١/٢، ح(٢٤٩٤).

Jurnal Usuluddin 29.indb 322 9/27/2010 5:34:22 PM

كفر به عن سيئاته".[٥٨] ومثله قوله ﷺ: "ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله تعالى وما عليه من خطيئة"[٥٩].

إن من كرم الله سبحانه وتعالى أن يكافئ من يبتليه في الحياة الدنيا ويعوضه ما فقده، كما حصل للنبي أيوب عليه السلام فقد أعاد له أهله ومثلهم، وكما عوض الله أم سليم زوج الصحابي أبي طلحة حين صبرت على فقدها ولدها، والأجر في الدنيا ثابت في القرآن الكريم، قال تعالى: { مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً} النحل: ٩٧. كما أنه ثواب في الآخرة، وليس المقصود هو الأجر على المصيبة بل على الصبر والرضا، لأنها ليست من عمله فقد قال تعالى: {إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}"[٦٠]، كما يكون الابتلاء وسيلة لدخول الجنة، قال تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ} آل عمران: ١٤٢.

وقد رتب الله عز وجل المغفرة والرحمة لكل من ابتلي في دينه ثم هاجر وجاهد وصبر، قال تعالى: {ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} النحل: ١١٠، وبعد أن نزلت آيات الأذن بالجهاد طمع الصحابة في الأجر فقالوا: "يا رسول الله أنطمع أن تكون لنا غزوة نعطى فيها أجر المجاهدين فأنزل الله عز وجل: {إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} فوضع الله ذلك على أعظم الرجاء"[٦١]، وتقرر الآية أن هؤلاء المؤمنين بذلوا جهدهم في إعلاء كلمة الله راجين رحمته

---

٥٨ البخاري، **الصحيح**، كتاب المرضى والطب، باب ما جاء في كفارة المرض، ج٧، ص٢، ابن حجر، **فتح الباري** شرح صحيح البخاري، ح(٥٦٤)، ١٠٣/١، وفيه الوصب: المرض، والنصب: التعب، والإمام مسلم، **الصحيح**، كتاب البر، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه، ١٩٩٢/٤-١٩٩٣، ح (٢٥٧٢، ٢٥٧٣)، والإمام أحمد، **المسند**، ١٨/٣-١٩، ٤٨، والترمذي، **الجامع الصحيح**، كتاب الجنائز، باب ما جاء في ثواب المريض، ح (٩٦٦)، ٢٩٨/٣.

٥٩ الترمذي، **الجامع الصحيح**، كتاب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، ٦٠٢/٤، وصححه، ابن ماجة، **سننه**، كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، ١٣٣٤/٢، الإمام أحمد، **المسند**، ٢٨٧/٢، ٤٥٠، والحاكم، **المستدرك**، ٣٤٧/١، ٣١٤/٤.

٦٠ العز بن عبد السلام، **فوائد البلوى**، ص١٥، (الهامش)، والآية من الطور ٥٢: ١٦.

٦١ انظر الحديث في تفسير ابن كثير، ج١ ص٢٥٥، و**مختصره للصابوني**، ج١، ص١٩٢. والطبري في تفسيره، ج٢، ص٣٥٦، وابن هشام، **السيرة النب** الترمذي، **الجامع الصحيح**، كتاب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، ٦٠٢/٤، وصححه، ابن ماجة، **سننه**، كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، ١٣٣٤/٢، الإمام أحمد، **المسند**، ٢٨٧/٢، ٤٥٠، والحاكم، **المستدرك**، ٣٤٧/١، ٣١٤/٤.
العز بن عبد السلام، **فوائد البلوى**، ص١٥، (الهامش)، والآية من الطور ٥٢: ١٦.

Jurnal Usuluddin 29.indb 323 9/27/2010 5:34:23 PM

فالله لا يخيبهم أبداً، فكانت تلك الآيات محفزة لهم على الصبر.. وتوالت الآيات في ذلك تترى خلال الغزوات وبعدها.. ولذلك عاتبهم الله على تخلف البعض منهم يوم تبوك ورغبتهم عن الأجر والثواب والمغفرة، واعداً إياهم بالجزاء العظيم فقال: {مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلاَ يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} التوبة: ١٢٠

القسم الثاني: الحكم والفوائد للجماعة وآثارها في تمكين الأمة

هناك فوائد لا يتحقق منها الإنسان المبتلى إلا بعد مدة وهي الفوائد الخفية، ولكن المؤمن ابتداء يوقن أن الخير فيما يختاره الله له وإن خفيت عليه الفائدة والحكمة في حينها، مصداقا لقوله تعالى: {فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا} النساء: ١٩، وقال كذلك: {وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ} البقرة: ٢١٦، وقد جاءت هذه الآية في سياق فرض الجهاد والذي فيه مشقة كبيرة {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ} ولكن فيه من الفوائد والحكم الخافية ما أظهرته الأيام فيما بعد، فلولا الجهاد ما قامت لهم قائمة، وقضي عليهم ابتداء.

وليس معنى الآية مقصورا على مسألة الجهاد، بل في كل الأمور، فالحكمة خافية على البشر، وهي جزء من الإيمان بالغيب وحسن الظن بالله، قال رسول الله ﷺ: "حسن الظن من حسن العبادة"[٦٢]، ومن ذلك أن الله أمر بحسن المعاشرة للزوجة وإن كره منها الزوج أموراً فقال: {فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا...} الآية من مثل "استدامة الصحبة وحصول الأولاد"[٦٣].

وقد ضرب الله مثلا على ذلك في حادثة الإفك، ففي ظاهرها أنها فتنة ومحنة

انظر الحديث في **تفسير ابن كثير**، ج١ ص٢٥٥، و**مختصره للصابوني**، ج١، ص١٩٢. والطبري في تفسيره، ج٢، ص٣٥٦، وابن **وية**، ج٣، ص١٥٠.

٦٢ أبو داود، **سننه**، رقم (٤٩٩٣) كتاب الأدب باب في حسن الظن، ٢٦٦/٥، المباركفوري، محمد بن عبد الرحمن، **تحفة الأحوذي**، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، ٧٠/١٠، رقم (٣٦٧٩)، وقال هذا حديث غريب من هذا الوجه، أحمد، **المسند**، ٢٩٧/٢، ٣٥٩، ٤٠٧/٢، ٤٩١/٢.

٦٣ المصدر السابق، ص١٠٢.

Jurnal Usuluddin 29.indb 324 9/27/2010 5:34:23 PM

وكلها شر... لأن فتنة العرض من أقوى الابتلاءات وخصوصا في بيت النبوة، وقد علل الحكمة منها بأنها درس تربوي للمجتمع المسلم قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ..} النور: ١١، ''والخير أنه كشف الحادث عن العصبة التي تكيد للإسلام والمسلمين في شخص الرسول ﷺ كما كشف للجماعة المسلمة عن المنهج القويم في مواجهة مثل هذا الأمر العظيم من حسن الظن بالمؤمنين وعدم إشاعة الفاحشة، إضافة إلى الأجر العظيم لمن صبر، وعقاب من خاض في القول، يقول سيد قطب: ''أما الآلام التي عاناها رسول الله ﷺ وأهل بيته والجماعة المسلمة كلها، فهي ثمن التجربة وضريبة الابتلاء الواجبة الأداء...''[٦٤]، وقد ذكر العز بن عبد السلام نماذج من تلك الفوائد الخفية من قصص الأنبياء[٦٥].

إن الحكم والفوائد للإفراد قد تتحق للجماعة ولا يمكن الفصل التام بينهما، بل ربما تتحقق تلك التي للأفراد في الابتلاء الجماعي، ومن هذه الحكم والفوائد ما يأتي:

أولاً: الإعداد والتمكين

الفتن والمحن العامة وسيلة تربوية للإعداد وترسيخ الإيمان، والتحلي بالصبر وكظم الغيظ، وذلك لأخذ الأهبة والاستعداد لأداء الأمانة رحمة من الله بالجماعة وتعهده لها بالرعاية، واعداد الخلف من بعدهم، وعلى هذا نرى الرعيل الأول الذي تخرّج من مدرسة الأنبياء يقومون بأعباء الدعوة بعد أن ورثوا تركتها الثقيلة حيث أدخلهم الله مدرسة الابتلاء مع أنبيائهم مسخرأ أعداءه ليربي بهم أولياءه ليعدّهم لحمل الأمانة وعلى هذا فالابتلاء يسبق التمكين حيث تمتحن الجماعة المؤمنة حتى يكون من يستخلفهم الله أقوياء أُمناء لا يخونون ولا يفرطون، فيوسفU يخرج من السجن ليتبوأ على عرش مصر وخزائنها، ومع ذلك يظل مراقباً لربه يجوع يوماً ويشبع يوماً، وهنا يتجلى الفارق بين من يخرج من السجن ليتولى الحكم..، ومن يخرج من الحكم إلى

---

٦٤ سيد قطب، **في ظلال القرآن**، ج٤، ص٢٥٠٠-٢٥٠١.

٦٥ أبو بكر الدينوري، مروان بن مالك، **كتاب المجالسة وجواهر العلم**، تحقيق عدنان عبد الرحمن القيسي، ١٧٢/١. فقال: «ولما أخذ الجبار سارة من إبراهيم، كان في طي البلية والمصيبة أن أخدمها هاجر فولدت إسماعيل لإبراهيم عليهم السلام، فكان في ذرية إسماعيل سيد المرسلين وخاتم النبيين فأعظم بذلك من خير كان في طي تلك البلية».، وفي قصة موسى مع الرجل الصالح وما عمله من خرق السفينة وقتل الغلام وبناء الجدار فوائد خفية لم يدركها موسى عليه السلام ولم يستطع عليها صبرا حتى بينها له.. وعن سفيان الثوري أنه قال: ''ليس بعاقل من لم يعد البلاء نعمة، والرخاء مصيبة''.

Jurnal Usuluddin 29.indb 325 9/27/2010 5:34:23 PM

السجن وهم كثير.

ويظهر من هذا حكمة الله في ابتلاء هذه الأمة لوعده تعالى: {وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ} فالشهادة على الناس تكون من التمكين، والاجتباء للأمة لتبليغ رسالة الإسلام كما إن الرسول ﷺ قد اجتباه الله لتبليغ الناس ولا يصلح لمثل ذلك إلا بعد التمحيص بأنواعه، قال تعالى: {وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ..} الحج: ٧٨، "والظاهر أن الأمر بالجهاد في هذه الآية يبرز فيه بوضوح جهاد الدعوة لا جهاد القتال".[٦٦]

ثانياً: نفي الخبث عن الدعوة وتنقية الصف المؤمن

في الفتن الجماعية تظهر معادن الناس وصفاتهم من الصبر والشجاعة والزهد والتواضع والثبات والكرم، مما يناقضها كالشح والجبن والجشع والكبرياء وغيره، وتنكشف حقيقة النفوس المدعية، فمدعي الإيمان والثبات قد يولي هارباً ويتراجع عن كل شيء فتقام عليه الحجة، {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ} محمد: ٣١.

وفي الفتنة يثبت من عصمهم الله بالإيمان، فيتحملون الأمانة الكبرى، وبذلك يتم نفي الخبث عن الدعوة[٦٧]، بأن يسقط المنافقون والمداهنون ويتنحون عن المؤمنين، وهؤلاء لا يجدون عند الناس إلا الاستخفاف، بينما يكبر في أعين الناس وقلوبهم أولئك المجاهدون المضحون في سبيل الدعوة، بل حتى في نظر خصومهم.. ومن حكمة الله تعالى عدم دخول المتكبرين – المتطلعين إلى الزعامة – في الإسلام ابتداءً، ولو دخلوا خلال الصف المؤمن لخذلوهم، وفرقوا بينهم.

كما وإن المحن تساعد على تنقية الصف المؤمن من أعدائه الباطنيين المتغلغلين بين صفوفه[٦٨]، فقد يدخل الصف المؤمن وقت الرخاء من يتظاهر بالإسلام فيكون الابتلاء وسيلة لمعرفتهم ثم تنقية الجماعة المؤمنة منهم، وهذا ما حدث أثناء حروب

---

٦٦ الميداني، عبد الرحمن حبنكة، **بصائر المسلم المعاصر**، ص ٣٩١، وراجع: البغوي، **معالم التنزيل**، ٢٩/٥.

٦٧ راجع: منير محمد غضبان، **فقه السيرة النبوية**، ط٢، مطابع جامعة أُم القرى، مكة ٩٩٢، ص١٩١.

٦٨ أبو فارس محمد عبد القادر، ص١٣٧.

Jurnal Usuluddin 29.indb 326 9/27/2010 5:34:24 PM

الرسول ﷺ في المدينة حيث حاول المنافقون تثبيط المسلمين عن الخروج للقتال، فقال تعالى: {مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ} آل عمران: ١٧٩. "أي ما كان الله ليذركم يا معشر المؤمنين على ما أنتم عليه من الاختلاط بالمنافقين حتى يميز بينكم"[٦٩].

ونجد كثيراً من الآيات تربط بين الفتنة الجماعية والنفاق، وذلك لأنهم حريصون على بث الفتن والمحن والشر بين المؤمنين كما أن هناك تلازماً بين كلمتي الفتنة والنفاق[٧٠]، وقد كشف القرآن عن صفات المنافقين كي لا ينخدع بهم المؤمنون، وذلك في سورة التوبة التي تظهر كيدهم حيث يقول تعالى {لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ، لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ، وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} التوبة: ٤٧-٤٩، وبعد أن ذكرت الآيات العشر الأوائل من سورة العنكبوت أنواعاً للفتن التي يواجهها المؤمنون، قال تعالى: {وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ} العنكبوت: ١١.

ثالثاً: تقوية الصف المسلم

وذلك عند الخروج من الابتلاء وتعميق المحبة بينهم بعد تنقية صفهم من الأعداء فيخرج قوياً متماسكاً يصعب اختراقه وهدمه. فالابتلاء يؤلف بين القلوب ويتأسى بعضهم ببعض فتزداد المودة، لأن جو المحن يسوده التراحم والتعاطف حين يرى بعضهم عنت البعض الآخر. والشدائد تزيد الجماعات تماسكاً واقتراباً، وقد شبّه بعض الدعاة الجماعات حين تعرضها للابتلاء بقطعة الاسفنج التي كلما زاد الضغط عليها قل حجمها وتقاربت أجزاؤها وطردت الهواء من فجواتها، فالصف المسلم يقل عدده لكنه يشتد صلابة لأنه فرغ من أصحاب الأفئدة الهواء.."[٧١]، ويترتب على ذلك فوائد منها:

١- ظهور القدوة الحسنة: فحين تظهر الفتنة أناساً صابرين، فسيكونون قدوة

٦٩ الأشقر، **زبدة التفسير من فتح القدير**، ط٢، شركة ذات السلاسل، الكويت، ١٩٨٨م، ص ٩٢.

٧٠ راجع: السحيباني عبد الحميد، ص٣٧٥.

٧١ راجع: حجازي ابراهيم، ١٠/١/١٩٩٦، **الجوانب المشرقة للابتلاء** ، المجتمع، العدد ١٢١٩، الكويت ص٥٨.

Jurnal Usuluddin 29.indb 327 9/27/2010 5:34:24 PM

لغيرهم، فلا زال شهداء الأُمم من الرعيل الأول قدوة للمسلمين يذكرون صبرهم عند الشدائد وفي مقارعة الأعداء سواء في معارك الأعداء أو المعارك الفكرية، هم قدوة ومنارة يُهتدى بها على الطريق الصحيح، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّة..} التوبة: ١١١.

٢- جذب العناصر القوية للدعوة: يؤدي ثبات المؤمنين وتضحياتهم إلى أن تتوق النفوس القوية لهذه العقيدة، فيسارعون للإسلام دون تردد[٧٢]، وكثير من الشخصيات البارزة دخلت الإسلام بهذه الطريقة، وفي إسلام حمزة عم النبي ﷺ مثال على ذلك والذي سمي "أسد الله" فقد سرى نور الإيمان إلى فؤاده حين علم أن أبا جهل مرّ بالرسول ﷺ عند الصفا ونال منه. وكذلك في قصة إسلام عمر بن الخطاب حين رأى ثبات أُخته وزوجها بعد أن ضربهما ورأى تعلقهما بالإسلام مع بقية المسلمين فكان ذلك دافعاً له ليتعرف ويقرأ ما عندهما من القرآن فيسلم[٧٣].

٣- الدعاية للدعوة الإسلامية: «فصبر المؤمنين على الابتلاء دعوة صامتة تساعد على دخول الناس فيه أفواجاً، ولو وهنوا أو استكانوا لما استجاب لهم أحد، وفي الصبر أيضاً إغاظة للأعداء.

رابعاً: بروز روح التحدي

وهذا ما تميزت به المجتمعات الإسلامية عند الابتلاء ومواجهات الأعداء سواء على المستوى العسكري أو الفكري، حيث تتحد القوى والأهداف بينهما، كما حصل في مرات مختلفة من التاريخ، وأظهرها مقاومة الهجمات الصليبية إبان الحروب الصليبية حين اتسم الفكر الإسلامي بطابع المقاومة والتحدي، ورد الفعل بالدعوة إلى الجهاد ومشاركة الدعاة به، وبروز القدوة الحسنة كابن تيمية وسلطان العلماء العز بن عبد السلام، وتكرر ذلك التحدي بعد دخول الاستعمار والأمثلة من الواقع كثيرة، ورأينا كيف أن شعب الشيشان وما تعرض المسلمون فيه للإبادة والنفي إلى سيبيريا والتي شكلت – فيمن تبقى منهم على قيد الحياة– طاقة إيمانية، فالتحدي جعلهم اليوم ينتصرون على أعدائهم ويحافظون على هويتهم.. وهذا ما هو حاصل الآن في «كوسوفو حيث أن جيش تحرير

[٧٢] راجع: المصدر السابق ص ١٩٥.

[٧٣] راجع: قصة إسلام حمزة وعمر بن الخطاب ﷺ في المصدر السابق، ص١٩٦-٢٠١.

Jurnal Usuluddin 29.indb 328 9/27/2010 5:34:24 PM

كوسوفو تشكل من مجموعات الشباب الذين عاشوا حياة الاضطهاد، ففضلوا الموت على الحياة..[٧٤] ولولا الفتن والمحن لما برز ذلك وتوهج إيمانهم.

ولهذا فإن المحن والفتن التي تعرضت لها الشعوب الإسلامية أدت إلى التمسك بدين الإسلام حين تعرض لها ويحدث عكس ما يخطط له الأعداء، وقد حدث هذا مثلاً في جنوب شرق آسيا أيام الاستعمار، يقول الدكتور عبد الرحمن تشيك: «ومن أعظم التأثير أن صار مصطلح الملايو اليوم مرادفاً للإسلام، وأصبح الإسلام عنصراً أساسياً في تعريف الشخصية الملاوية..»[٧٥]، ومثل ذلك حدث في البوسنة يقول الرئيس علي عزت بيجوفتش: «إن الشعب البوسني زاد تمسكه بدينه وعقيدته بعد أن كشفت الحرب أن عداء الصرب هو في الحقيقة عداء للإسلام، إن الأُمم القوية هي التي تتمسك بهويتها وعقيدتها في المحن والابتلاءات، بل وفي أشد الظروف صعوبة»[٧٦].

خامساً: التنبه لمكائد الأعداء

تحفز الشدائد المسلمين للتنبه لمحاولات الأعداء في فتنتهم سواء كانوا من أهل الكتاب أو غيرهم، وهو أمر قديم قدم الإسلام حيث تسلل أهل الكتاب إلى صفوف المسلمين وأحدثوا الفتن والتي بدأت من مقتل عثمان ﷺ إلى يومنا هذا .. وقد نبه القرآن إلى ذلك في آيات بينات منها قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ} آل عمران: ١٠٠، ونظراً للفتن والمحن التي واجهها المسلمون فقد كانت الحكمة أن تنبه المسلمون إلى من يثير تلك الفتن وإلى كشفهم وكشف أساليبهم وخططهم ووضع حدٍ لها.

ويترتب على ذلك معرفة الخلل والضعف الذي يمكن تجنبه في ظروف المحنة كما تساعد الفتن وخصوصاً

الحروب على كشف الجماعة المسلمة لأساليب الصف الآخر وخططهم

---

٧٤ راجع: شعبان عبد الرحمن، ١٩٩٨/٣/٢١م، **الوجه المشرق للحرب**، المجتمع، العدد ١٢٩٤، ذي الحجة ١٤١٨هـ، ص ١٩.

٧٥ عبد الرحمن تشيك، ١٩٩٨/١/٢٧م، **المسلمون في جنوب شرق آسيا**، التاريخ والجهاد ضد الإستعمار، المجتمع، العدد ١٢٨٦، الكويت، ص ٤٦-٤٧.

٧٦ لطفي عبد اللطيف، ١٩٩٧/١٢/٢٣م، بيجوفيتش في محاضرة "**تطور الثقافة الإسلامية في مواجهة التحديات المعاصرة**» على هامش أعمال مؤتمر في جامعة الرياض، المجتمع، العدد ١٢٨١، ديسمبر، الكويت، ص ٤٨.

Jurnal Usuluddin 29.indb 329 9/27/2010 5:34:24 PM

ووسائلهم ودسائسهم ومكرهم، والتعرف على نقاط ضعفهم لكي يمكن التغلب عليها، وفي الحروب قد يرخص مالا يرخص في غيرها من الأوقات في كشف الأعداء والوقيعة بينهم كما حدث في معركة الخندق.

سادساً: اتخاذ الشهداء

ومن حكم الابتلاء الجماعي كذلك، أن الله سبحانه وتعالى هيأ لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته، لم تبلغها أعمالهم، ولم يكونوا بالغيها إلا بالبلاء والمحنة فقيض الله لهم الأسباب التي توصلهم إليها، من ابتلائه وامتحانه كما وفقهم للأعما ل الصالحة التي هي من جملة أسباب وصولهم إليها..

ومن تلك المنازل "الشهادة" وقد رتب الله ذلك بعدما أوضح أن ذلك من حكم الابتلاء: {وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ} آل عمران: ١٤٠، أي: وليكرم فئة منكم بالشهادة ليمنحها عنده كرامة الشهداء ما دامت أعمارهم قد انتهت، وآجالهم قد حلت فلئن يموتوا شهداء خير لهم"[٧٧]. وفي هذه الآية بيان الحكمة من ابتلاء المؤمنين بظهور الكفار يوم أُحد فمنها تمييز أهل الإيمان والصبر، ومنها إدراك بعض المؤمنين الشهادة..

كما وضحت آية أخرى الحكمة من ابتلاء المؤمنين بالجهاد {ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لاَنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَا بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ} محمد: ٤٧، فقوله "ليبلو بعضكم ببعض" أي "فيصير من قتل من المؤمنين إلى الثواب، ومن قتل من الكفار الى العذاب"[٧٨]، ثم بين بعد ذلك الثواب وهو الجنة التي عرفها لهم.

سابعاً: تحقيق سنة المداولة

وهي من السنن الإلهية، فلو أعطي التمكين لأُمة ما دائماً لبغوا وطغوا فلا يصلح لعباده إلا السراء والضراء، والشدة والرخاء، فهو المدبر لعباده بحكمته فهو الخبير البصير، قال تعالى: {وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ، إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ} آل عمران:١٣٩-

[٧٧] الميداني، عبد الرحمن حبنكة، **بصائر المسلم المعاصر**، ص ٣٨٦.
[٧٨] البغوي، **معالم التنزيل**، ج٦، ص١٧٥.

Jurnal Usuluddin 29.indb 330 9/27/2010 5:34:25 PM

١٤٠، ''قرح'': جراح، و''نداولها بين الناس'' أي: نجعلها إقبالاً وإدباراً، ونعمة ومصيبة، ونصراً وهزيمة، فحكمة امتحان الناس تقتضي ذلك، ولولاه لما كان للإرادات الحرة خيار في الإيمان والكفر والطاعة والمعصية..[٧٩]

وهكذا نجد أن للفتن حكماً وفوائد للفرد وللمجتمع خاصة وعامة اقتضتها حكمة الله سبحانه وتعالى وهو العارف بعباده وما يصلح لهم في الدارين {أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} الملك:١٤.

الخاتمة:

وفي نهاية المطاف توصل البحث للنتائج الآتية:

أ. السنن الإلهية هي قانون الله في التعامل مع الكون والحياة الإنسانية، ومنها سنة الابتلاء، التي تقع في الخير والشر، ولها صفة الاطراد حيث تستدعي الشكر في الأولى والصبر في الثانية، وهدفها التمحيص، لإقامة خلافة الإنسان على الأرض.

ب. السنن الكونية مسخرة للإنسان مستخلفاً في الأرض، وهي في أحد خطوطها السارية في الكون تجري عليه رضي أم أبى ولا يملك من أمرها نفعا ولا ضراً، كالموت والحياة، ومنها ما يستطيع الاستفادة منها فيسخرها لما يريد وينتفع بها بقدر ما أوتي من العلم والكشف عن قوانينها، وتتجلى فيها إرادته، فهو مسؤول مسؤولية اختيارية يتحمل فيها صوابه وخطأه.

ت. أن القصص القرآني بأنواعه (للأنبياء وغيرهم، والسيرة)، خير ما يوضح هذه السنن مما يستدعي تدبرها وأخذ العبرة منها، وهو الهدف من إيرادها، وبقدر إحراز أية أمة لفهم أكبر لتسخير السنن الكونية والاستفادة منها وتطبيق أدق لها، تتبوأ مكانها بين الأمم، وبقدر نقصها في الفهم وتقصيرها في العمل بموجبه، ينعكس سيرها سلبا وإيجابا.[٨٠]

---

٧٩ الميداني، عبد الرحمن حبنكة، **بصائر المسلم المعاصر**،ص ٨٥.

٨٠ انظر: الوزير، إبراهيم بن علي، على مشارف القرن الخامس عشر الهجري: **دراسة السنن الإلهية والمسلم المعاصر**، ص ٨-٩.

Jurnal Usuluddin 29.indb 331 9/27/2010 5:34:25 PM

ث. إن من أسباب نكبة الأمة وتأخرها عدم فهمها للسنن، كالأخذ بأسباب العلم والقوة، والنصر، وأسباب سقوط الدول والحضارات، ولها فرصة في قانون التغيير لترتفع إلى مكان عزيز منيع، وإلا تتوالى عليها النكبات لأن الحضارات تدور حسب الصلاحية العامة. وعليها إدراك الأسباب الكثيرة لواقعها في تكالب الأمم عليها، ''وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ'' الشورى: ٣٠، وعلى العلماء إشاعة فهم هذه السنن، في ضوء قوله تعالى: ''وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ* وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ'' إبراهيم: ١٣-١٤.

ج. لسنة الابتلاء علاقة بالسنن الأخرى، سنةً للتغيير والتداول والقدر... ولها حكم وفوائد كثيرة، سواء على المستوى الفردي أو الجماعي، تنصب في النهاية في مصلحة الأمة في التثبيت والتمكين، من تمييزهم وكشف العناصر الضارة، وكشف الأعداء والمنافقين، والتعرف على مواطن الخلل والضعف في صفوفهم، وبروز روح التحدي بالتمسك بالدين وإدراك عظمته.

ح. مع ما في الابتلاء من حكم وفوائد ولكن لا ينبغي للمسلم استعجال البلاء أو استجلابه، لأنه جهل بالسنن، فقد روى البخاري عن رسولنا ﷺ. "لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا اله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا"[٨١] وقوله» لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه، قالوا: كيف يذل نفسه؟ قال: يتعرض من البلاء لما لا يطيق»[٨٢].

[٨١] البخاري، صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، برقم (٢٨٠٤)، ج٣ ص١٠٨٢، ومسلم، في الجهاد والسير، برقم (١٧٤١، ١٧٤٢)، ج٣ ص١٣٦٢، وأبو داود برقم (٦٢٣١) والدارمي (٢٣٥٠) ومسند الإمام أحمد (١٩١٣٧).

[٨٢] الترمذي، سنن الترمذي، كتاب الفتن، باب النهي عن سب الرياح..، برقم (٢٢٥٤)، ج٤، ص٥٢٢، وقال إبو عيسى: هذا حديث حسن غريب، وابن ماجة في سننه، كتاب الفتن، باب قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم..» برقم (٤٠١٦)، ج٢، ص١٣٣٢، والهيثمي في مجمع الزوائد، ج٧، ص٢٧٤، والبيهقي في شعب الإيمان، برقم (١٠٨٢١)، ج٧ ص٤١٨.

Jurnal Usuluddin 29.indb 332 9/27/2010 5:34:25 PM